حوليات آداب عين شمس المجلد 51 (عدد أكتوبر – ديسمبر 2023)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

الحياة والموت والبعث عند ابسن
(دراسة لمسرحية: عندما نبعث نحن الموتى)

أ م د/ علي عبد الله حيدر*

أستاذ مشارك: قسم النقد والأدب المسرحي– المعهد العالي للفنون المسرحية– دولة الكويت
ali.kw@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/07/26
تاريخ قبول البحث: 2022/08/12
تاريخ النشر: 2023/12/30

المستخلص:

لا شك في أن الحياة التي يحياها الكاتب الدرامي تطبع أعماله الدرامية سواء أتم ذلك عن وعي أو إغفال خلال مرحلة الإبداع الفني، رغم مراعاة الموضوعية في عرض الحبكة والشخصيات الدرامية، حتى لا يغدو الموضوع ذاتيًا. فمثلًا، لا نستطيع التعرف على وليم شكسبير من خلال دراسة مسرحية هملت أو عطيل أو الملك لير، وذلك لمقدرته في التركيز على حبكة وشخصيات العمل الدرامي دون أن يقحم ذاته في الموضوع.

وخلال دراسة الباحث لأعمال الكاتب هنريك إبسن وجد أن هناك علاقة وثيقة بين الكاتب وبين أعماله الدرامية، وذلك على ضوء دراسة حياته من ناحية، وأعماله الدرامية من ناحية أخرى.

لقد عانى إبسن كثيرًا من الوحدة والغربة، حتى تعذر عليه الانسلاخ من إسقاط عذابه على أعماله لا شعوريًا، من هنا ربط الباحث بين حياته وبين نماذج من مسرحياته الدرامية، خصوصًا في مسرحيته الأخيرة موضوع البحث.

لقد دفع بنا إبسن إلى عرض قضايا إنسانية تثير كثيرًا من التساؤلات الفلسفية والاجتماعية والنفسية من خلال هذا العمل المبدع، فعنوان المسرحية يحتمل الكثير من التساؤلات المحيرة، والتي تجعل المتلقي أو المشاهد تُهبة الرهبة من هذا العنوان المثير. لقد جسد إبسن، بل وكشف لنا، عن أن هناك بعض البشر يعيشون حياتهم في عزلة وكآبة وحزن وتفكير في الماضي وخوف من المستقبل! إنهم يعانون طوال الوقت، ويعيشون في صمت قاتل مخيف، بل إنهم يعكفون على التفكير في الماضي رغبة في التقوقع داخل أعماق ذواتهم خوفًا من مواجهة الذات، وهربًا من التفكير في الغد، لأنهم لا يمتلكون الإرادة الإنسانية التي تخرجهم من الموت المعنوي الذي فرضوه على أنفسهم إلى الحياة الإنسانية الحقة، أو بمعنى درامي إنساني، كما أوضح الباحث، من الموت المعنوي إلى الخلاص والبعث الجديد واستقبال الحياة الطبيعية، فهناك من وجد خلاصه في التحرر من ربقة الماضي من طريق الإرادة الإنسانية التي منحها الخالق للبشر، (مثل شخصية مايا)، وهناك من وجد خلاصه في الانتحار هربًا من الموت المعنوي (مثل شخصية روبك).

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب – جامعة عين شمس 2023.

(إن أعظم منحة قدمتها لي النرويج هي منحة العذاب)

هنريك إبسن

لاشك في أن عنوان مسرحية هنريك إبسن، (عندما نبعث نحن الموتى)، يحمل الكثير من المعاني والمضامين المحملة بالرموز والغموض الفكري والفلسفي أيضًا، والتي يطرح إبسنمن خلالها كثيرًا من التساؤلات الفكرية المحيرة التي قد تصدم المتلقي، بل وربما تجعله يرتدمرة أخرى إلى ذاته منقبًا في حياته السابقة لكي يعيد تقييم نفسه وحياته على ضوء المستقبل.

لكنْ،أيمكن أن يتكلم الموتى؟ وهل يدرك الأموات أنهم حقًا موتى! وهل ينتظر الموتى البعث والخلاص والعودة مرة أخرى إلى الحياة؟على أن السؤال المهمَّ هنا والذي يرتبط بمضمونهذا البحث، هو: من هم هؤلاءالموتى الذين يقصدهم إبسن!؟

إن دراسة وتحليل هذا النص الدرامي يكشف لنا عن تجربة إنسانية بالغة الأهمية، حيثنجدأن هناك أحياء يعيشون حياتهم كالموتى من خلال الارتداد إلى الماضي،ومن خلال الهروبأوالتقوقع داخل الذات، ظنًا منهم أنهم بهذا التقوقع يمكنهم الهروب من الماضي الذيماتوانتهى،مع أنه يظل يطاردهم ويعيش بداخلهم حيث لا يملكون الإرادة الحقة لمواجهة واقعهم المرير والعودة مرة أخرى إلى الحياة الإنسانية الحقيقية.

وهناك أيضًا من يموت حيًا عاجزًا عن القيام بعمل يكسر به هذا الجمود العقلي، مستسلمًاللكآبة والقلق والحزن والتفكير، لذلك نطلق هنا على هذه الحالة اسم(الموت المعنوي)،حيث يفقد الإنسان القدرة على الإحساس بالحياة، إلىأنتأتي ساعة الخلاص التي تتجسد فيالإرادة الإنسانية،والتيتكون بمثابة البعث والخلاص بالنسبة إليه.

وقد يأخذ الخلاص طريقًا آخر هربًا من "الموت المعنوي" وذلكمن طريق الموت انتحارًا، على اعتبار أنه أيضًا طريق خلاص وبعث وراحة من عناء وشقاء الحياة.

ونحن هنا نتذكر كلمات شكسبير على لسان هملت:

هملت: أواه، ليت هذا الجثمان، وما أصلبه على الرزايا والكوارث، ليته يذوب،ويسيلوينحل إلى ندى،بل ليت بارئ الإنسان لم يحرم عليه قتل نفسه[1].

إن هملت، وفي لحظة من لحظات اليأس، يفكر في الانتحار،رغم أنه يعلم أن اللهقد حرمالانتحار، وبذلك يكون الوازع الديني قد شل إرادته عن فعل الانتحار.

هملت يرى أن في الموت سعادة،هربًا من ذلك الواقع الذي لم يستطع أن يتحمله، حيثشهدفيه مقتل والده وزواج أمه من العم كلوديوس.

هملت: ..الموت، نوم، ثم لا شيء. نوم نستقر به من آلام القلب وآلاف الخطوب التي وكلتهاالفطرة بالأجسام، ونخشاه على أنه خليق بأن نرجوه، الموت رقاد ...[2].

إنَّ الموت هنا، الذي يطلبه هملت ليس إلا طريق الخلاص والتحرروالهروب أيضًا من شرور العالم.وليس معنى البعث أن يكون بعثًا من الموت ومن القبر، مثل بعث السيد المسيح،بل قد يكون بعثًا وعودة إلى الحياة الإنسانية المفقودة

مرة أخرى، وذلك من طريق الإرادة الإنسانية حين يستيقظ وعي الإنسان، لأن الموت يكون بمثابة العدم، أما البعث فهو الرغبة الدفينةفي العودة إلى الحياة، رغبة في البحث عن كيفية استرداد الذات الضائعة والتمسك بالأمل والبحثعن الحب الضائع لهذه الحياة، ولا سيما بعد الشعور القوي بأن الحياة كانت لظروف خاصة، بمثابة الموت والعدم.

فهؤلاء الموتى الأحياء في حاجة إلى البحث عن طريق الخلاص والبعث لكي يعودوا مرة أخرى إلى الحياة وإلى انسانيتهم المفقودة شكلًا وموضوعًا، وخصوصًا بعد أن ظلوا سنوات طويلة يشعرون بأنهم يعيشون كالأموات.

وأعتقد أن هذا هو المعنى الحقيقي لفلسفة إبسن من خلال أعماله الدرامية، خصوصًا في هذا العمل الدرامي الرائع والبالغ الأهمية (عندما نبعث نحن الموتى) سواء من ناحية العنوانأو من ناحية المضمون الدرامي والفلسفي والنفسي والانساني أيضًا.

ولكي نلقي الضوء على المعنى الحقيقي للموت المعنوي، قبل دراسة النص الدرامي موضوع البحث، نقدم هنا بعض النماذج الدرامية عن تلك الفكرة، والتي يرى الباحث أنَّهما من الأفكارالمتكررة والملحة أيضًا عند إبسن، لأن الباحث وجد مؤشّرات كثيرة لهذه الفكرة في كثير من أعماله الدرامية، خصوصًا أن هذا النص كان آخر نص كتبه وهو في ظروف نفسية مرهقة، وهذا ما يكشف لنا، قدرته على تجسيد أفكاره الخاصة الفلسفية والنفسية ضمن أعماله الدرامية، ولكن بشكل فني رائع.

ترى ميوريل براد بروك أن إبسن كتب هذه المسرحية، (عندما نبعث نحن الموتى)، وهو "يعاني عذابًا وحزنًا شديدين، وأنَّه ينهار بعد كتابتها، ذلك أنها حكم الإدانة على كل ماكتبه منذ أن ولى ظهره للشعر وللنرويج، هذا إذا كان لهذه المسرحية دلالة شخصية علىالإطلاق، وهو أمر يكاد لا يقبل الجدل. وبأمانته السديدة، التي كانت مجده ولعنته، أصدرإبسن حكمه الأخير على نفسه. وكان من المناسب أن تكون الخاتمة بطولية، وموضوعةفي مشهد بطولي.. فوق ذروة الأعالي الغربية"[3].

ومن هنا يرى الباحث ضرورة تقديم بعض النماذج الدرامية لكي يلتمس فيها "الإرهاصات"لفكرة الموت والبعث والخلاص.

فعلى سبيل المثال، عاشت "مسز ألفنج" سنوات طويلة وهي خاضعة لنزوات زوجها الداعرة،كما جسدها إبسن في مسرحية (الأشباح)، وكانت تعيش كالأموات، وفي صمت تام، وذلك مراعاة للتقاليد والأعراف الدينية والاجتماعية، التي فرضت عليها هذا الصمت.

ولقد أصيب الأبن "أوزفولد" بمرض جنسي لا شفاء منه جرّاء انحرافات والده، وظل يعاني من المرض جسديًا ومعنويًا أيضًا.

أوزفولد:..تصوري أنا لا أستطيع العمل ثانية أبدًا،أبدًا، أن أموت وأنا ومازلت على قيدالحياةأمي، أيمكنك أن تتصوري شيئًا فظيعًا كهذا[4].

إن أوزفولد يدرك تمامًا مأساته الحقيقة، لذلك فإنه سيواجهها بأقراص خلاصة الأفيون لكي ينهي حياته إذا هاجمه المرض من خلال النوبة الأخيرة، والتي ستقضي عليه كي يعيش كالأموات.

إن مسز ألفنج تشعر في الواقع بحجم المأساة التي تعاني منها بسبب التقاليد والأعراف المسيطرة عليهادون أن تملك الإرادة الإنسانية لمواجهتها إذ إنها لا تملك سوى اجترار الألم.

مسز ألفنج: إنني أكاد أظن أننا جميعًا أشباح..إنه ليس فقط ماورثناه عن آبائنا وأمهاتناهو الذي يسير فينا.إنها كل أنواع الأفكار البالية، وكل ألوان المعتقدات القديمة البائدة.إنها لا تحيا بداخلنا، ولكنها تبقى معنا دائمًا رغم ذلك، ولا نستطيع الخلاص منها أبدًا..ونحن جميعًا نخشى النور لدرجة رهيبة[5].

إن ذاك النور هو ذلك البعث إلى الحياة الإنسانية والذي لا يتحقق بدون الإرادة التي تفتقدها مسز ألفنج، والتي لا تملك حتى حرية التمرد أو الثورة على تلك الأوضاع، وعلى تلك الحياة التي تشبه الجحيم، وذلك بسبب التقاليد والأعراف ولا سيما الأعراف الدينية، والتي يمثلها ويجسدها لنا إبسن من خلال القس ماندرز.

إن مجرد التفكير في كسر التابوهات يعتبر خروجًا على شرعية الدين والمجتمع.

ماندرز: نعم، تلك دلالة على روح متمردة، تطلب السعادة في هذه الحياة الدنيوية، ما هو حقنا في في السعادة؟ كلا، يا مسز ألفنج، علينا أن نؤدي واجبنا، وكان واجبكأن تظلي مع الرجل الذياخترته، والذي ارتبطت معه برباط مقدس[6].

فإذا كان الكتاب المقدس، أي العهد الجديد كما جاء في إنجيل متى، ينص على:

"من أجل ذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته، ويصبحان جسدًا واحدًا..وما جمع الله لا يفرقه إنسان"[7]. فاذا كان الأمر الديني هكذا، فإن إبسن يطرح سؤالًا هامًا من الناحية الدينية: هل تظل المرأة مع الرجل الذي تزوجته حتى ولو أدركت أنه إنسان داعر؟ إن صمت مسز ألفنح واستكانتها وفقدها الإرادة من الأسباب القوية لمأساة تلك الأسرة، والتي عاشت كالأموات وفي صمت، صمت الخوف من الأبعاد الدينية والاجتماعية أيضًا، ومن ثم فقدت تلك الأسرة التعيسة إمكانية البعث.

كما يتخذ مفهوم البعث عند إبسن، في مسرحية (بيت الدمية)، طريقًا آخر مختلفًا كل الاختلاف، وذلك من طريق شخصياته الدرامية التي تختلف كل الاختلاف عن شخصيات الأشباح. ففي تلك المسرحية نجد أن الشخصيات تعتمد على إرادتها أمام الظروف القاهرة التي تجعلها في حالة من اليأس، تلك الحالة التي تشبه الموت المعنوي الذي فرضته الظروف الاجتماعية والنفسية، ولكنها شخصيات تمتلك الإرادة التي تفجرت بداخلها رافضة ذلك الموت المعنوي ومتشبّثة بالعودة إلى حياة البشر السوية من خلال البعث المعنوي والإقبال على الحياة.

إن إبسن يسلط الضوء على ثلاث شخصيات درامية: لند وكروجشتاد ونورا؛

لند صديقة نورا اضطرتها ظروف الحياة الصعبة إلى التخلي عن الحب، حب كروجشتاد، والزواج بآخر، مضحية بذاتها ومشاعرها من أجل إعالة أسرتها، ثم ماعتّمت أن فقدت زوجها وأصبحت أرملة بلا موارد، وحيدة في معترك الحياة.

نورا: وإذن فأنت وحيدة في الدنيا.ياله من شعور قاس مؤلم[8].

بل إن معاناة لند تتجلى لنا من خلال تلك الكلمات الحزينة.

لند: كل ما أشعر به هو أن حياتي فارغة بشكل يبعث على الرثاء، ولم يبقلي شخص أعيش من أجله[9].

إن الوحدة القاتلة التي عاشتها لند جعلت حياتها مثل حياة الأموات، فذلكهو الموت المعنوي لها.

لند: إن أسوأ ما في موقفي أنه يثير المرارة في النفس. فبينما أصبحت لا أرتبط بأية غاية في الحياة، أراني مضطرة إلى الترصد لكل سانحة تبدو لي.إن سنة الحياة أن نعيش، ولهذا نكتسب صفة الأنانية[10].

وبذلك لا تفقد لند إرادتها، بل إنها لا تستسلم لقدرها وظروف حياتها،إنها تحاول أن تبعث بذاتها مرة أخرى إلى الحياة، وذلك ما حدث فعلًا حين وجدت حبها الحقيقي مرة أخرى مع كروجشتاد.

أما كروجشتاد، الذي هُدِّد بالطرد من البنك، نتيجة خطإ غير مقصود، فإنه كان يعاني جراء موت زوجته ورعاية أولاده، لذلك هو يطالب بحقه في الحياة من طريق العودة إلى البنك مرة أخرى.

كروجشتاد:..إذا اقتضت الضرورة، فإني مستعد للكفاح من أجل منصبي الحقير في البنك كفاحي من أجل الحياة[11].

كان كروجشتاد يعيش من القروض التي يحصل بوساطتها على أرباح الربا لكي تساعده على تربيةأولاده،وهو الذي أقرض نورا المال لمساعدة زوجها المريض في ذلك الوقت ،رغم علمه بالتزوير الذي قامت به. وفي لحظات اليأس، لأن الذي يريد طرده من البنك هو هلمر زوج نورا، علمًا بأنهما كانا صديقين، نراه يهدد نورا بإفشاء سر التزوير إلى زوجها، كوسيلة للنجاة من الطرد، ووسيلة للتمسك بالحياة من أجل بعثه مرة أخرى.

وفي مشهد رائع، من الناحيتين الدرامية والسيكولوجية أيضًا، يجعل إبسن كروجشتاد يلتقي بحبيبته السابقة لند، حيث تبدأ مرحلة قاسية ومؤلمة بين الاثنين.

كروجشتاد:..عندما فقدتك خيل إليّ أن الأرض قد ماتت تحت قدمي. وها أنت ترين ما صرت إليه. رجل حطمته الأنواء يتشبث بالحطام خوفًا من الغرق[12].

تلك المشاعرالأليمة نفسها تعاني منها لند أيضًا.

لند: أنا مثلك امرأة حطمتها الأنواء. تتشبث بحطام الحياة فلا أجد أحد يحزنلي، ولا أحد يعتني بي[13].

ولكن الموت المعنوي، الذي طغى على كل منهما، سرعان ما يتحول، من طريق الإرادة الإنسانية المنبعثة من الداخل، إلى بعث جديد، بعث لاستقبال الحياة مرةأخرى.

لند: ما قولك يانيلز لو قدر لنا نحن الذين حطمتنا أنواء الحياة أن نتآزر معًا؟

كروجشتاد: ماذا تقولين؟

لند: إن قوة إثنين في مهب الأنواء أجدى من قوة كل مفردة[14].

إن حالة من حالات الاستشراق وقوة الإرادة والتمسك بالأمل والرغبة الدفينة في البعث والعودة إلى حياة البشر تجتاح كلًّا منهما.

لند: لم أكن أطيق الحياة بغير عمل.ولقد هيمن على حياتي دائمًا عمل أستمد منه المساعدة الكبرىالوحيدة بالنسبة لي. أما الآن فقد أصبحت وحيدة في هذه الدنيا وأصبحت الحياة أمامي كصحراء مجدبة أهيم عزلاء في قفارها. ولم تعدللعمل لذة، فأية لذة أن يعمل الإنسان دون غاية إلا نفسه. وأنت يانيلزفي يدك أن تمدني بغاية أعمل من أجلها [15].

لقد أشعلت تلك الكلمات نار الفكر والعاطفة داخل كروجشتاد، فقد بعثه الحب إلى الحياة مرة أخرى، وارتد أيضًا على لند.

لند: في أعماقي أمومة طال بها العطب، وأطفالك في حاجة إلى أم تحنو عليهم. كلانا في حاجة إلى الآخر. أنا أؤمن بالعنصر الطيب فيك يانيلز،وأعتقد أنني قادرة على مجابهة أي لون من الشدائد إلى جانبك[16].

هذا الحنان المتدفّق من لند أثر في كروجشتاد تأثيرًا شديدًا، لقد كان هذا الحب المرتد هو البعث الحقيقي للعودة إلى الحياة. هذا الحب هو الذي فجر أيضًا نوازع الخير بداخله، لذلك نراه يعيد الصك المزور إلى نورا حتى لا يجرح مشاعرها.

كروجشتاد: هذه أرق لحظة مرت بي في حياتي[17].

هكذا بُعثت لند إلى الحياة مرة أخرى بعد الموت المعنوي، وبعث معها كروجشتاد أيضًا ليسيرا في حياة جديدة.

لند: ما أعظم الفرق بين ما كنت فيه وما أنا مقبلة عليه.. إنسان أعيش له، وغاية أحيا من أجلها، وبيت أنعم فيه بالراحة في ظله[18].

أما بالنسبة إلى شخصية نورا فقد بُعثت مرة أخرى عندما خلعت عن ذاتها ثوب الدمية، ولا سيما بعد أن اكتشفت أن زوجها هلمر لم يعد الرجل والزوج الذي ترغب في الحياة معه. إنه إنسان أناني متعجرف يحرص على سمعته ومركزه أكثر من حرصه وخوفه على زوجته. لقد فعلت نورا كل شيء من أجل زوجها وخصوصًا في أثناء مرضه، حيث زورت توقيع والدها لكي تحصل على القرض، دون أن تخبرهلمر خوفًا على مشاعره. ولكن، في المقابل، عندما يدرك هلمر هذا التزوير يثور عليها خوفًا على مركزه وسمعته في المدينة وفي البنك! إنه يرى أنها لا تصلح كزوجة وأم لأطفاله لأنها ستعلمهم الغش وعدم الأمانة.وعند عودة الوعي إلى كروجشتاد،نتيجة بعثه، نجده يعيد الصك إلى تلك الأسرة،عندئذ يدرك هلمر أنه أنقذ من الفضيحة حرصًا على مركزه، فيحاول أنيستميل زوجته نورا مرة أخرى.

أمّا السؤال الأساسي الذي يطرحه إبسن هنا فهو: هل تستطيع نورا أن تعيش مرة أخرى مع هذا الرجل رغم كل الأعراف الاجتماعية والدينية؟

إن شخصية نورا المتمردة تختلف كل الاختلاف عن شخصية مسز ألفنج الضعيفة والمستسلمة لكل التقاليد والأعراف. إن نورا ترفض الحياة مع هذا الرجل وتطالب بحريتها، وخصوصًا بعد أن جردت نفسها من لقب الدمية، وتقررترك المنزل الذي عاشت فيه. وما إغلاق نورا باب المنزل خلفها إلّا كرمز لرفض كل التقاليد والعادات القديمة التي تلغي حقوق المرأةوليس إغلاقه في وجه هلمر فقط، بل إغلاقه في وجه التقاليد والعادات التي تحكم عصرها.

لقد كانت نورا تعاني في صمت، وهذا ما أكده إبسن من خلال المواجهة الصريحة التي جرت بينها وبين هلمر:

نورا:... كل ما أعنيه أنني انتقلت من بيت أبي إلى يدك ووجدتك تنظم الكون من زاويتك الخاصة. فتبعتك في الطريق المرسوم..أو تظاهرت بأني أتبعك لست أدري أيهما. والآن. عندما أعود بذهني إلى الوراء، يخيل اليّ أنني لم أكن أزيد

عن عابرة سبيل كل همها أن تسود مطالب يومها. كانت وظيفتي، كما أردتها لي، أن أسليك، أنت وأبي جنيتما عليّ والذنب ذنبكما إذ لم أضع في حياتي شيئًا ذا قيمة[19].

إن نورا لم تحظ بالسعادة، بل إنها تظاهرت بذلك، فلقد كانت تعيش في صمت مثل الأموات الأحياء، حرصًا منها على منزلها وأولادها.إن عملية البعث، الروح،الصحوة، والبحث عن الذات، تعبر عنها نورا بأبلغ العبارات الدرامية:

نورا:.. وعليّ أولًا أن أقوم بتربية نفسي وأتعلم الحياة. وهذه ليست مهمتك، بل مهمتي ولهذا قررت أن أتركك[20].

وما ذلك إلّا لأن الاعتماد على الإرادة الإنسانية، التي بداخل الإنسان الذي يتطلع إلى الحرية والغد، سوف تجعله يبعث إلى الحياة من جديد.

نورا: يجب ألا أعتمد إلا على نفسي، وألم بالعالم المحيط بي، وهذا ما يدفعني لانفصال عنك[21].

لقد اكتشفت نورا، من خلال هذا البعث، أن أقدس الواجبات هو واجب الإنسان تجاه ذاته حتى ولو تمرد على كل الأوضاع الاجتماعية والدينية.

نورا:.. ولكني ما عدت أقنع بما يراه الناس ولا بما يردد في الكتب. أريد أن أزن الأشياء بوحي من فكري أنا لا من فكر الغير. وأن أرقى إلى مرتبة الفهم والإدراك[22].

إن نورا تتمرد على كل القوانين التي تشكّل عثرة في طريق حرية الإنسان.

نورا:.. أصبحت أعرف الآن أن القانون لا يتفق مع الصورة التي كانت منطبقة في ذهني..إذ هو لا يجيز لامرأة أن تقضي الهموم عن أبيها المريض، ولا أن تنقذ زوجها،وهو ما لا يتصوره عقلي[23].

لقد تحررت نورا وبعثت إلى الحياة مرة أخرى من طريق الإرادة التي أشعلتها بداخلها بعد حياة كان الصمت فيها يحتويها ويخنقها.

وفي مسرحية (سيد البنائين) جسّد لنا إبسن شخصية مركبة معقدة ونعني بها شخصية هالفرد سولنس، حيث نراه شخصًا يخشى تقلبات القدر، يخشى الجيل الجديد، لأنه يمكن أن يتفوق عليه في المستقبل القريب.إنه لا يستطيع أن يتذوق طعم الحياة لأن لديه إحساسًا داخليًا يُشعره بأنه مريض أو به مس من الجنون، فكيف يمكن لإنسان مثل هذا أن ينعم بسعادة الحياة؟ إن كل تلك المخاوف المرضية قد انعكست على سلوكه وأفعاله، إلى درجة أنه بات يشعر بلذة تعذيب الذات، حين يجعل زوجته تشك في وجود علاقة بينه وبين كايا الموظفة لديه في مكتبه، وتلك حالة ماسوشية نفسية لتلك الشخصية المركبة.

سولنس: يبدو أنني أجد نوعًا من تعذيب النفس المحبب في إدع آلين تظلمني بأفكارها[24].

إن لديه إحساسًا مرضيًا بأن القدر يتأرجح دائمًا، فلا يحظى بطعم وسعادة الحياة.

سولنس: الحظ سيتحول. وانني أعلم ذلك.. انني أحس بذلك اليوم يقترب..إن بعضهم سيخطر بباله أن يقول ليأعطني فرصة! وبعدئذ يتفاطر صوبي كل الباقيين، وسيهزون قبضتهم في وجهي، ويصيحون افسح مكانًا.. افسح مكانًا.. إن الجيل الجديد الآنببابي[25].

ويلقي إبسن بظلال احتراق منزل زوجته على كل تلك المعاناة النفسية لتلك الشخصية المريضة، وخصوصًا بعد ضياع أطفاله. إن تلك المعاناة تجعل الشخصية تصل إلى مرحلة اليأس.

سولنس: آه، ولكن هذا أمر ميئس، ميئس لا شعاع من ضوء شمس فيه..إنا لا نجد شعاعًا من الإشراق يضيء بيتنا[26].

إن تلك الكآبة تضفي عليه نوعًا من الموت المعنوي، حيث يفقد طعم وعذوبة لذة الحياة.إن هيلدا تصف سولنس بأنه ضعيف الشخصية، وهو سبب معاناته الداخلية.

سولنس: ضمير مريض؟ ما معنى ذلك بحق الشيطان؟

هيلدا : أعني أن ضميرك مريض ضعيف، بناؤه في غاية الضعف، لذلك فإنه لا يجد من القوة ما يعينه على أن يتحمل كثيرًا من الأشياء لك يحمل كل ما هو ثقيل[27].

إن إبسن يجعل سولنس يعتقد بأن السيد المسيح قد كف عن حبه حين كف عن بناء الكنائس، وهذا الإحساس النفسي الغريب يسميه سولنس (بالعقاب)، وقد كان من الأسباب القوية التي دفعت تلك الشخصية إلى الانتحار هربًا من حياته ومعاناته النفسية، لأن هذا الانتحار يعني بالنسبة إليه الخلاص من هذا العالم الذي لم يستطع التكيف أو التوافق معه.إنه نوع من الهروب أيضًا.

وبذلك جعل إبسن عملية الانتحار هي التمرد والخلاص من هذا العالم ومن تلك الحياة الشاقة، باعتبار الانتحار خلاص سولنس.

وعلى عكس شخصية سولنس جسد لنا إبسن، في مسرحية (عدو الشعب)، شخصية د. توماس ستوكمان، تلك الشخصية التي تمتلك الإرادة الإنسانية الحقة، ولقد استطاع بمفرده أن يصمد ويقف بمواجهة كل قوى الشر، وذلك حين اكتشف أن مياه الحمامات، التي يعتمد على دخلها بعض الناس للتكسب منها، ملوثة ولا تصلح للحياة الإنسانية لأنها تنشر المرض. لقد ظل واثقًا من نفسه وإرادته ولم يتنازل عن آرائه لأنه يرى أنه على حق.

د. ستوكمان: لقد قلت إنني سأتحدث عن الاكتشاف العظيم.. اكتشافي. إن جميع منابع حياتنا الروحية مسمومة وأن مجتمعنا بكامله مشيد على أسس موبوءة فاسدة[28].

وبذلك تختلف تلك الشخصية المميزة، والتي تقدم على الحياة، والتي تجدد حياتها بإرادتها، عن شخصية سولنس في مسرحية(سيد البنائين)، عن مسز ألفنج في الأشباح،عن هلمر في بيت الدمية...إن أحساس الإنسان بذاته من أعظم الثوابت البشرية.

د. ستكومان:..إن أقوى رجل في العالم هو الذي يقف وحده[29].

إن ستوكمان وجد خلاصه وبعثه في قوة إرادته.

إن تلك النماذج المقَدمة ليست إلا إرهاصات يراها الباحث بمثابة خطوات وتجارب بشرية، حتى يصل إلى مرحلة أخيرة من مراحل حياته وفنه، ويقدم لنا درة أعماله الدرامية، التي هي موضوع هذا البحث.

لا شك في أن الصمت عند إبسن يلعب دورًا مهمًا في أعماله الدرامية، إذ إنّ لغته لغة درامية، حيث تجسد هذه اللغة دورًا مؤثرًا في مضمون وبداية هذا العمل الدرامي (عندما نبعث نحن الموتى)، بحيث يكون الصمت رمزًا لعدم التواصل الفكري والعاطفي بين الفنان المثّال الكهل روبك وبين زوجته الشابة مايا. إن روبكيعيش متقوقعًا داخل ذاته الحبيسة بذكريات الماضي، خصوصًا مع تمثاله الذي قام بنحته فخلده وجلب له الشهرة العالمية والثراء الوفير. لقد نحت روبك هذا التمثال عندما كانت "الموديل" إيرين تقف أمامه عارية الجسد لكي يجسد تمثال"البعث". لقد أحب روبك إيرين حبًا صامتًا، كما أحبته هي أيضًا، غير أنه لم يستطع أن يلمسها كرجل أو أن يقيم معها علاقة جسدية، وذلك لاعتقاده بأنه لو ترك نفسه لغرائزه وشهواته، كرجل، فإنه بذلك يدنس نقاء فكرة البعث، البعث من الموت في أثناء عملية الإبداع الفني، لأنه يرى أن للموت قداسة وللبعث أيضًا قداسة، حتى لو تجسد هذا النقاء في تمثال من الحجر أو من الرخام.

أما بالنسبة إلى الزوجة الشابة مايا المتّقدة حيوية ونشاطًا، فإنها وجدت نفسها مع زوج كهل يعيش في صمت ضمن عالمه الداخلي، وحيدًا مع ذكرياته الماضية، حيث يعاني القلق والكآبة وماضيًا لا يفارق ذاته وخياله. ولا شك في أن هذا الوضع قد أثّر تأثيرًا قويًا في مايا، حتى إنها شعرت بأنها فقدت معنى الحياة، بل وأنها تعيش كالأموات مع هذا الزوج الكهل. إن مايا هنا تعبر لنا عن هذا القلق النفسي الذي اجتاح الزوج روبك.

مايا:..فقد بدأت تتجول هنا وهناك دون أن ترتاح لحظة، ولم يعد في امكانك البقاء في مكان واحد لا في الوطن ولا في الخارج. وأصبحت في الأيام الأخيرة ميالًا إلى اعتزال الناس ...[30].

فماذا تفعل مايا إزاء زوج كهذا!؟ أن التناقض الصارخ، الذي يجسّده إبسن هنا بين عالم روبك الصامت، وبين عالم مايا الشابة، والتي تعاني من الوحدة والصمت والجو الكئيب ومن الحياة التي تشبه العدم، يجعلنا نفكر في كيفية استمرار الحياة بين الاثنين، وكيف يمكن أن تبعث الشخصيات مرة أخرى إلى الحياة!

على ضوء هذا التمهيد الدرامي، الذي قدّمه إبسن، يستطيع المتلقي أن يدرك معاناة وآلام كل منهما رغم الصمت، لأن الصمت الشامل العميق ينفي كل رغبة في التواصل والتقارب بين الاثنين. إن كلًّا منهما يعيش في عالمه الداخلي من خلال لغة الصمت، وليست هناك لغة مشتركة بينهما أو حتى تقارب عاطفي أو عقلي.

مايا: يخيل إليّ أن السكون يخيم على كل مكان نذهب إليه هنا في أرض الوطن[31].

ولكي يعمق إبسن هذا الانفصال الداخلي فإنه يجعل مايا تعبر عما في داخلها من إحساس بالتباعد الداخلي تجاه روبك وشعورها بعبء الملل الذي سيطر على حياتها.

مايا: لا شك في أن في المدينة جلبة وضجيجًا، ولكني لا أدري كيف أنه حتى الجلبة والضجيج فيهما شيء من الموت[32].

ومن ثم يكون إبسن قد جعل التباعد النفسي تمهيدًا دراميًا للأحداث القادمة، فضلًا عن بيان عدم التواصل سواء أساد الصمت أو بقي تحت ضجيج الضوضاء، إذ إن كلًّا منهما بدا شاعرًا بطعم الموت فاقدًا القدرة على تذوق المعنى الحقيقي للحياة.

إن مايا شابة متّقدة المشاعر مقبلة على الحياة، وتتمنى أن تحظى بالحياة الحقيقية، كما تتمنى أن تدخل في تجارب جديدة لاكتشاف عوالم جديدة، بهدف كسر الملل وتحطيم جدار الصمت، حتى ولو كانت تلك المعارف تتعلق بالجبال والغابات، كرمز واضح للانطلاق والبحث عن الحرية. فلا عزاء إذًا لمايا في العيش مع هذا الكهل روبك الذي يعيش مع ماضيه وذكرياته المصمتة. إن مايا لا تستطيع أن تسمي منزل الزوجية منزلًا، بل إنها تطلق عليهاسم (الدار)، وذلك لشعورها بعدم الانتماء إلى هذا العالم، وإلى تلك الحياة الزوجية المتباعدة نفسيًا وفكريًا مع روبك الفنان المتوحِّد مع ذاته والمتقوقع مع ماضيه ومع حبه المفقود.

وعلى ضوء هذه الحياة الصعبة تجد مايا الفرصة المناسبة لتحطيم حاجز الصمت والملل ونمطية الحياة الكئيبة في التعرف على صائد الدببة أولفهايم، والذي يصحبها لمشاهدة الطبيعة وتسلق الجبال ورؤية الغابات وصيد الحيوانات.إن كل تلك الأفعال الحيوية تجعلها تشعر بطعم الحياة، فهذا أفضل من عالم الصمت الذي عاشت وعانت منه مع روبك. وهذا الانطلاق الحر.. والتمتع بالحرية المطلقة.. ليسا سوى محاولة للبعث من الموت المعنوي بالنسبة إلى مايا.ومن ناحية أخرى، نجد أن روبك، بعد أن أنجز تمثال البعث، قد زهد في نحت تماثيل أخرى، حيث فقد روح الإبداع بسبب رحيل الملهمة إيرين، بل إنه شعر بأن التماثيل النصفية التي تجسد شخوص الأغنياء ليست إلا تماثيل لا معنى لها بالنسبة إليه.

روبك:..ليست إلا وجوه جياد ذات هيبة وأبهة، أو وجوه حمير عنيدة مكممة، أو جماجم كلاب مبتورة الآذان منبعجة الجبهة، أو خنازير سمينة ذاتخراطيم طويلة..وفي أحيان أخرى تبدوثيران غبية متوحشة[33].

لقد فقد روبك لذة الإبداع الفني والعمل،وإذا كان قد وعد مايا بأن يريها العالم من قمة جبل عالٍ، فإنَّ مايا لم تحظ بغير الصمت والملل والعزلة النفسية، لذلكراحت تعبر عن نفسها وعن علاقتها النفسية مع روبك.

مايا: .. وانك أيضًا لكئيب ياروبك.

روبك: ألم تكشفي ذلك إلا الآن.

مايا: بل اكتشفته منذ زمن طويل[34].

إن الإحساس الرهيب بالعزلة والفراغ العاطفي بين الاثنين يجعل الهوة بينهما هوة سحيقة.

مايا : فمنذ أربع، أو خمس سنوات مميتة، ونحن نعيش وحيدين –بمفردنا –دون أن نفترق ساعة واحدة.. نحن الاثنان ولا أحد معنا[35].

إن إبسن يسلط الضوء على ماهية روبك من خلال رؤية واحساس مايا الزوجة التي تشعر بطعم الموت معه.

مايا :إنك ياروبك لست رجل مجتمعات، انك تريد أن تظل وحيدًا، لا تكشف نفسك لغير نفسك ولا تعرض على أحد أفكارك، وأنا لا أستطيع بالطبع أن أتحدث معك عن عملك حديثًا صحيحًا، فإنني لا أعرف شيئًا عن الفن وما أشبه بالفن ولا أهتم بهذا الأمر إلا قليلًا[36].

ومن ثم، يصبح عدم التوافق سببًا للكآبة والقلق النفسي وللصمت وللعزلة أيضًا. وبالطبع لا يستطيع هذا الوضع بين الزوجين أن يستمرعلى هذا الحال.

روبك: لا سآتي سريعًا ذلك الوقت الذي لا أستطيع فيه احتمال تلك الحياة[37].

وقد يسأل المتلقيبعد سماعه تلك الجملة، والتي قيلت في لحظة ضغط نفسي رهيب بالنسبة إلى روبك: هل تعني الخلاص من مايا أو التفكير في الانتحار والموت كنوع من الخلاص من تلك الحياة القاسية؟

روبك:..ليس في الإمكان أن نستمرأنا وأنت في حياة كهذه[38].

إن روبك يعبّر عن ذاته تعبيرًا صادقًا لكي يكشف مكنون أعماقه الداخلية.

روبك:..إن ما أريده هو مرافقة شخص آخر يمكنه أن يكملني..أن يتم الناقص فيّ أكون أنا وهو في عملي شخصًا واحدًا[39].

إننا نجد أن روبك قد أدرك، خلال لحظة من لحظات الاستشراق الفكري والنفسي، أن هناك شيئًا أهم من الفن، انها الحياة. حياة الإنسان والاستمتاع بهذا الوجود.

روبك:..أحسست أن كل ما يقال عن دعوى الفنان ورسالته وما أشبههما ليس في حقيقته إلا شيئًا فارغًا تافهًا لا معنى له.

مايا: وماذا وضعت مكان الرسالة اذًا؟

روبك: الحياة يامايا.

مايا : الحياة؟

روبك: نعم، أليست الحياة تحت أشعة الشمس وبين الجمال خيرًا ألف مرة من أن يظل الانسان طوال حياته حتى الموت في جحر مظلم رطب قذر يصارع دائمًا كتل الصلصال وقطع الأحجار؟[40].

إن إدراك روبك لتلك الحقيقة لم يأت من فراغ، بل جاء نتيجة معاناة الوحدة والعزلة ونتيجة الفراغ العاطفي المفقود بينه وبين زوجته مايا، فضلًا عن شعوره بأنه يحيا كالأموات، حتى ولو جاء هذا الإدراك متأخرًا.

إن مايا تطرح فكرة جديدة، وهي:هل يمكن العيش حيث يجتمع روبك ومايا والملهمة إيرين في بيت واحد؟ هذه الجملة إن دلت على شيء، فإنها تدل على فكرة التحرر لدى مايا التي أرادت أن تحطم التقاليد الاجتماعية والدينية أيضًا، ذلك لأنها لن تخسر شيئًا من تلك التجربة، فأي شيء أفضل من هذا الموت المعنوي الذي تعاني منه مايا؟

إن عالم تلك الشخصية النابضة بالحياة يختلف كلية عن عالم روبك المصمت والمنغلق على ذاته، وبذلك استأثر أولفهايم باهتمام مايا. لقد وجدت حريتها وإرادتها في الانطلاق والصعود إلى أعالي الجبال مع صائد الدببة المغامر.وليس

صعود الجبال إلّا رمزًا للتحرر من ذلك الزوج الكهل روبك والحياة التي تشبه الموت. إن مايا تنطلق بعد أن اكتشفت حريتها في الانطلاق الحر. لقد تحررت من قيود الزوجية، حين اكتشفت –مثل نورا في بيت الدمية– أنه يمكن للإنسان من طريق الارادة أن ينطلق ويصبح إنسانًا حرًا حرية كاملة، خصوصًا أنَّروبك لم يعترض على انطلاق مايا مع أولفهايم.إن السعادة بهذا الانطلاق تجعل مايا تولد من جديد بعد تحرّرها.

مايا: أنا حرة..أنا حرة..أنا حرة..حياتي لن تطيق السجن بعد اليوم في غمره..أنا كالطير رفافا سأحيا مثله حرة[41].

لقد وجدت مايا في صائد الدببة روحًا جديدة مقبلة على الحياة، على نقيض روبك المنعزل عن العالم. إن كلمات صائد الدببة قد جعلتها تقارن بينه وبين روبك.

أولفهايم: إني صائد إذا سنحت الفرصة ياسيدتي، ولكني أنتهز فرصة أي صيد يعترض طريقي.. فأصيد النسور والذئاب والنساء والأيائل والوعول على شرط أن تكون طازجة غضة تتدفق الدماء في عروقها[42].

لقد بُعثت مايا من جديد من الموت المعنوي ومن تلك الحياة الكئيبة، لكي تجد أمامها الحياة والحرية، إنه البعث الجديد بالنسبةإليها.

ثم يبدأ إبسن في كشف العالم الداخلي للفنان النحات روبك حين نتعرّف على سبب القلق النفسي والصمت والانطواء مع ذكرياته الماضية الدفينة بداخله، والتي جعلته غيرمتآلف مع زوجته الشابة مايا.

يرى موريس غرافيه أن هناك تشابهًا كبيرًا بين إبسن وبين روبك. "وربما هوالأستاذ روبك..الذي يشبه هنريك إبسن. فهذا النحات أتعس زوجته التي اقترن بها في سن متقدمة وأتعس أكثر منها (نموذج) تماثيله التي رفض حبها، ويلوم روبك نفسه قبل كل شيء، على أنه استغرق إلى حد مفرط في حلمه الخلاق"[43].

ومن ثم نجد أن إبسن قد أسقط على روبك –سواء عن وعي أو لاإغفال– كثيرًا من الصفات الخاصة بذاته.

ومن ناحية أخرى، إذا كان روبك قد شعر بالعزلة فإن إبسن ذاته "يشكو منتلك العزلة التي يحبس فيها المبدع نفسه، حتى دون أن يشعر. وفي مكان آخركان يمجد قوة الإنسان المنفرد، وقد رضي بالمصير الكرب الذي ظل مرتبطًا بمسلكه المهني"[44].

ويستطيع الباحث أن يقول –رغم الحذر الشديد– إن روبك ليس إلّا صورة من إبسن ذاته ولا سيما أنَّروبك كان يعشق فن النحت لما عشق إبسن فن الكتابة، فضلًا عن شعور إبسن بالعزلة والقلق خصوصًا في أيامه الأخيرة التي كان يعاني فيها من الوحدة والمرض والألم النفسي.

إن ذلك الماضي، ومن خلال العزلة النفسية التي كان روبك يعاني منها، جعله يرتد مرة أخرى إلى الحاضر المرير، وذلك حين يكتشف أن تلك المرأة الغريبة هي حبيبته و"موديله" المقدس إيرين، والتي كانت مجرد موديل تقف أمامه عارية الجسد في أثناء نحته لتمثاله (البعث)، والذي يعبر عن امرأة تُبعث من الموت، حيث كانت إيرين بالنسبة إليه المعنى الحقيقي للقداسة الفنية.

يرى توريل موي: "أن روبك اذن لا يريد امرأة. إنه يريد ملهمة قادرة على أن تقرأ عقله ولا تهتم إطلاقًا بأن يقرأ هو عقلها: إنه لا يستطيع أن يعبر عن نفسه فنيًا إلا إذا وجد هذه المخلوقة. إن رغبة روبك اليائسة من أجل الإتحاد مع امرأة مكرسة تمامًا لمشروعه الإبداعي"[45]، إذ إنه كان يبحث عن الطهارة الفنية والعفاف والزهد واسقاط كل رغباته وشهواته الجسدية من أجل الفن فقط. كان لا يستطيع أن يلمسها أو يقيم معها علاقة جسدية خوفًا من أن يدنس فكرة البعث، أو أن يلوث لحظات الإبداع الفني. لقد عاش معها كالراهب الذي يتفرغ للعبادة فقط..ولكن السؤال المهم الذي يمكن أن نطرحه هنا: هل تلك القداسة وهذا الزهد ينفيان عن إيرين كونها امرأة؟ امرأة لها مشاعر ورغبات وخصوصًا أنها كانت تعشق ذلك الراهب الفنان روبك!إن الصراع الداخلي الذي كان يعذب إيرين نفسيًّا هو رغبتها الجنسية لإقامة علاقة مع روبك، وخوف روبك من تدنيس تمثاله وتدنيس فكرة البعث ذاتها. هذا التحريم أو هذا التابو الذي أوجده روبك لنفسه جرّد إيرين من كونها امرأة لها مشاعر ورغبات. إن إيرين هي الحب الحقيقي الدفين داخل أعماقه، هي حبه الصامت المقدس، ولكن تلك القداسة قد جعلت إيرين تعيش حياة تعيسة، حياة تشبه حياة الموتى أيضًا. إن الصراع بين الجسد والغريزة وبين القداسة قد بدا وجهًا لوجه، فذلك التناقض المحير وغيرالمعلن، والذي غلفه الصمت، كتب على إيرين التعاسة وإلغاء أنوثتها كامرأة نابضة بالحيوية والحب أمام قداسة واهية. فالعلاقة بين الاثنين علاقة غريبة متوحشة أيضًا، تتخطى المشاعر الإنسانية الطبيعية، لذلك تشكّل"العلاقة بين روبك وإيرين في(عندما نستيقظ نحن الموتى) شكلًا كاريكاتوريّا وحشيًا للقيمة الجمالية التي تصور العلاقة بين الجنسين، بين الرجل المبتكر والمرأة المبتكرة، بين الرجل الصانع والمرأة ربة الإلهام"[46].

وهنا يجب أن نلاحظ أنه رغم شهرة تمثال البعث، مجسدًا في ذلك "الموديل" إيرين، والذي جلب لروبك الشهرة، فإننا نجد، نتيجة معاناة إيرين في السابق، رغبتها في تحطيم التمثال أو الطفل، كما كانت تسمي هذا التمثال، وذلك لأن هذا التمثال هو الذي جرّدها من أنوثتها ومن حبها أيضًا.

إيرين:.. لكنت قتلت ذلك الطفل.

روبك: تقولين قتلته!

إيرين : لكنت قتلته..قبل أن أتركك وأذهب بعيدًا، كنت سحقته سحقته حتى يصير ترابًا[47].

ان إيرين تواصل كشف معاناتها لذلك التمثال الذي جردها من أنوثتها الفطرية.

إيرين: منذ ذلك الوقت قتلته مرات لا عداد لها، قتلته في وضح النهار وتحت ستار الظلام، قتلته ببغض.. وانتقام..وألم[48].

لقد انعكس هذا الحقد والرغبة في الانتقام على إيرين، حتى إنها قررت الانتقام من الرجال، بحيث دفعت زوجها السياسي إلى الجنون والانتحار، ثم قتلت زوجها الثاني الروسي الجنسية، كما قتلت أطفالها دون شفقة. فهل هذه الحالة هي حالة انعكاس ورغبة دفينة ولا شعورية للانتقام من جنس الرجال بسبب ما حدث لها مع روبك! إن تلك الكلمات تدفع هذا الأخيرإلى الاندهاش والصدمة.

روبك :..خيط من خيوط طبيعتك الانسانية قد انقطع.

إيرين :..ألا يحدث ذلك دائمًا عندما تموت امرأة شابة حارة الدماء[49].

إن إيرين لم تملك سوى تحطيم وسحق هذا التمثال مرات كثيرة في خيالها لأنه كان سببتعاستها.ولقد قدم لنا إبسن صراعًا سيكولوجيًا جنسيًا بين عالم الفن ونقاء سريرة الفنان في أثناء لحظات الإبداع الفني، والذي يتجرد فيها من كل رغباته الجنسية لأجل فنه، وبين معاناة إيرين الصامتة كونها امرأة عاشقة تملك غريزة الأنثى الفطرية فضلًا عن أنها كانت عاشقة لروبك.إن إيرين لم تستطع الاستمرار في تلك المعاناة الصامتة حيث كانت تشعر بطعم الموت المعنوي قبل الموت الجسدي، وهي لهذا تعبِّر عن تلك المعاناة بحزن شديد.

يرى ريموند وليمز أن إيرين قد أصبحت "المرأة النقية الجميلة مسخًا عاريًا في صندوق الدنيا. كما أن الحقيقة الجديدة، أو (الشبه الصارخ) هي بمنتهى البساطة طبيعة حيوانية. وقد استحالت الشهوة عند إيرينإلى حد الجنون"[50].

إيرين: لقد مت منذ سنين طويلة، جاءوا وقيّدوني..قيدوا يديَّ خلف ظهري.. وأنزلوني إلى القبر، ووضعوا فوق فوهته قضبانًا من الحديد، وبطنوا حوائطه حتى لايسمع أحد ممن فوق القبر صرخات من القبر. ولكنى الآن بدأت أستيقظ بصورة ما من بين الموتى[51].

إن تجاهل روبك هو سبب موتها المعنوي، ولكن هذا التجاهل لم يكن مقصودًا أو إنكارًا لمشاعرها كامرأة، بل كان لغرض أسمى من ذلك، كما يعتقد روبك، غرض أسمى وأقدس من العلاقة الجنسية التي تربط الرجل بالمرأة. لقد أخطأ روبك في حقها كامرأة، حين حاول أن يقدم التسويغ لتصرّفات كانت إيرين ترفضها.

إيرين: لا، بل أخطأت! أخطأت في حق طبيعتي الداخلية،في صميم طبيعتي الفطرية الغريزية[52].

والحقيقة، كان روبك يجاهد ويتصارع مع ذاته لكبت شهواته كي لا يدنس فنه وفكرة البعث عنده، حتى ولو كان ذلك على حساب كبت شهواته كرجل.

روبك:ولهذا السبب وحده وجدت فيك كل ما أطلبه منك أنت لا في أخرى سواك، وكنت أنظر اليك كشيء مقدس يجب ألا يُمس إلا في أفكار العبادة، كنت حدثًا إذ ذاك يا إيرين، وتتملكني خرافة أنني إذا لمستك أو اشتهيتك تدنست روحي فلا أستطيع اكمال العمل الذي أكد فيه..وما زلت أرى في ذلك بعض الصدق[53].

إن سبب كل تلك التحولات النفسية التي اجتاحت إيرينكانروبك، الذي كان يعتقد أن القداسة الفنية لابد أن تطمس على شهوة الجسد.

إيرين: نعم أنت! فيإخلاص عرّضت جسدي كله لنظراتك..ولكنك لم تلمسني مرة واحدة[54].

إن إيرين تطرح سؤالًا مهمًا ومؤثرًا من الناحية الدرامية والإنسانية، فأيهما يكتسب العدالة والفطرة الإنسانية: العمل أو الحياة الإنسانية؟ ولذا فهي تقول فيما يشبه السخرية:

إيرين: العمل أولًا..ثم يأتي الإنسان[55].

ترى إيرين أن حياة الإنسان أولًا، ثم يأتي الفن ثانيًا. غير أن روبك كان يرى غير ذلك،كان يرى الفن أولًا، لأنه القداسة الفنية.

روبك: الشكر والفضل في انتهائي من عملي العظيم لك، كنت أريد أن أجسّم المرأة الطاهرة، كما رأيتها تستيقظ يوم البعث، لا يثير عجبها أي شيء جديد أومجهول أو غير مقدس، ولكن يملؤها الفرح السماوي إذا وجدت نفسها لم تتغير.. هي نفسها المرأة الأرضية في عالم أرفع وأسعد وأكثر حرية.. بعد نوم الموت الطويل الخالي من الأحلام..هكذا تصوّرتها وقد رأيتها في صورتك أنت إيرين(56).

إن تلك الكلمات الخيالية لا ترضي إيرين أو تقنعها، فإن عذاب السنوات الماضية لم ينتهِ في داخلها، وذلك لتجاهلها كامرأة. لقد منحته سنوات من شبابها ووقفت عارية أمامه لكي يجسدها كتمثال لا كامرأة.

ولو كان هناك نوع من الأمل لدى روبك، فإن إيرين التي تعاني معاناة داخلية لم تتغير إذ لا يزال يخامرها الإحساس بالموت المعنوي، وروبك يدرك ذلك جيدًا لأنه السبب في كل ما أصابها من معاناة.

إيرين: لماذا لم تعد تجسر على النظر إليّ؟

روبك: لأن لك خيالًا يعذبني، ولأن لي ضميرًا يثقل عليّ حتى ليهلكني(57).

إنه يدرك تمامًا السبب الحقيقي لمعاناتها، فهي تعبِّر لنا عن تلك اللحظات أصدق تعبير لتكشف عن ألمها وأعماقها الداخلية المعذبة.

إيرين: نعم أنت، الفنان الذي أخذ دون مبالاة ولا اهتمام جسدًا حار الدماء،حياة إنسانة شابة، وانتزع منه الروح(58).

لقد كرهت إيرين الفن كما كرهت الفنان الذي تجسّد في شخصية روبك.

إيرين: ولأنك كنت فنانًا، وفنانًا فقط..ولم تكن رجلًا!(59).

إن المرأة التي تقف عارية أمام ذلك الفنان، الذي يتفرس في جسدها لكي ينحت تمثالًا دون إدراك لمشاعرها كامرأة، تشعر أنه تجاهل أنوثتها، وهذا التجاهل سبب لها جرحًا نفسيًا عميقًا.

لقد بيَّن لنا إبسن أنها كانت على وشك أن تقتل روبك، ولكنها تراجعت وأخفت الخنجر الذي كانت تحمله معها دائمًا، خصوصًا بعد أن استمعت إلى التعديلات التي أدخلها على تمثال البعث أو بالأصح على (طفلهما) الروحي.

كان روبك يتوهم دائمًا وأبدًا عودة إيرين إليه بعد شعوره بافتقادها المدمر، غير أن إيرين كانت في حالة نفسية لا تسمح لها بالعودة.

إيرين: ما كنت أستطيع المجيء إليك يا أرنولد،إذ كنت راقدة هناك في القبر نائمة نومًا عميقًا طويلًا مليئًا بالأحلام.

روبك: ولكنك استيقظت الآن يا إيرين.

إيرين: (تهز رأسها) ما زلت أحس بالنوم الثقيل العميق يغمض عيني..

روبك: سترين أن اليوم سيبزغ فجره ويضيء لنا كلينا.

إيرين: لا أصدق ذلك(60).

إن معاناة روبك قد تعكس لنا معاناة إبسن نفسه أثناء حياته. ولذا فهو يجسد ألم روبك ومعاناته.

روبك:.. رجل مثقل بالذنوب،لا يعرف كيف يتحرر تمامًا من هذهالأرض وقد سميته الندم على حياة الإفراط، وكان يغمس أصابعه في الماء الجاري لينظفها..ولكنه يتألم ويتعذب..لكونه لن ينجح أبدًا، أبدًا في ذلك، إنه لن ينال أبدًا، مهما امتد به الأمد، الحرية أو الحياة الجديدة وأنه سيظل إلى الأبد سجين جحيمه[61].

لاشك في أننا نستطيع أن ندرك أن تلك الإضافة، التي أضافها روبك على تمثاله، ليستإلّا تجسيدًا لمعاناة روبك ذاته، وذلك لشعوره بالإثم تجاهإيرين، والتي تدرك ذلكأيضًا. والشيء الجدير بالملاحظة في هذا النص الدرامي، ورود كلمات دينية، مع أننا لا نعرف على وجه اليقين–إيمان إبسن أو إنكاره أو حتى إلحاده– غير أن تلك الكلمات تتكرر كثيرًا من مثل الندم، مثقل بالخطايا والآثام، التكفير، غفران الخطايا، الألم والعذاب،الغفران، التطهير، الجحيم...

إيرين:.. ملؤك الغفران لكل ما ارتكبت من خطايا بالنية أو بالفعل، لقد قتلت روحيولذا صورت نفسك نادمًا مقرًا بذنوبك كارها الخطيئة.. وتعتقدبذلك قد تطهرت[62].

إن إيرين تعبِّر عن معاناتها وقسوتها تجاه ذاتها كامرأة جردت من أنوثتها.

إيرين:..ولكني أنا –إذ ذاك– كنت كائنًا إنسانيًا! وكانت لي أيضًا حياة لأحياها.. وغرض إنساني لأتمه، وكل هذا تركته، ولتعلم ذلك..قذفت به كلهبعيدًا لأكون أمة لك..أوه، كان ذلك قتلا لنفسي..خطيئةمميتة ضد نفسي ولن أغفر لنفسي هذه الخطيئة[63].

لقد تمنّت إيرين أن تكون زوجة وأمًا، أمًا لأطفال حقيقيين وليس لأطفال من رخاممثل (طفل البعث). أما بالنسبة إلى روبك، وخصوصًا بعد إنجازه تمثال البعث،فقداعتبر أنَّ ما بينه وبينإيرين ليس إلّا قصة استطرادية، وذلك ما جعل إيرين ترحلوتختفي رغم حبها الشديد له.

إيرين: فعلت ما قلته لي.. فذهبت معك إلى المرتفعات حيث ركعت على ركبتي وعبدتك وخدمتك..إذ ذاك رأيت الشروق[64].

لم تقل تلك الكلمات لرجل من قبل، لقد كان روبك بالنسبة إليها آلهًا، غيرأن ذلك الشروق الذيشاهدته على قمة المرتفعات كان يحمل معنى الموت بالنسبة إليها، بل لم تكن هناك أمل في العودة إلى ما سبق، ليس هناك أمل في(بعث) حياة جديدة.

روبك :..ساعديني..ساعديني على أن أحيا حياتي مرة أخرى.

إيرين :..أحلام فارغة..احلام فجة..ميتة..فلا بعث للحياة التي عشناها أناوأنت[65].

وعندما يتم الاتفاق على اللقاء فوق المرتفعات يشعر روبك بسعادة من نوع غريب، إذ كان هناك شعور خفي بلمسات من السعادة المجهولة.

روبك:..ليلة صيف فوق المرتفع، معك، معك..آه يا إيرين..هذه هي الحياةالتي يجب أن نحياها. وهي التي فرطنا فيها نحن الاثنان.

إيرين: أنا لا أرى الأشياء التي لا يمكن أن تعوض إلا عندما..

روبك :..عندما!

إيرين : عندما نبعث نحن الموتى.

روبك :..ما الذي نراه حقيقة إذ ذاك؟

إيرين : نرى أننا لم نعش أبدا[66].

ورغم أن الصعود إلى قمم الجبال طريق صعب ووعر ومحفوف بالمخاطر القاتلة إلّا أن كلًّا منهما قرر خوض التجربة، حيث لا مكانللتقدم أو التراجع، حيث إن الريح تنبىء بالعاصفة.

إن إبسن يجعل هناك علاقة درامية قوية بين حالة الجو المتقلبة، وبين العالم الداخليللشخصيات التي تعاني الحزن والألم.

أولفهايم :.. ولكن ألا ترى أن العاصفة فوقنا؟ ألا تسمع صرير الريح.

روبك : تبدو كمقدمات يوم البعث.

أولفهايم: إنها صرير الريح من القمم يارجل! ألا ترى كيف تسير السحب وتنحدر هابطة..إنها سرعان ما تحيط بنا وكأنها الأكفان.

روبك:..أعرف هذه الأكفان[67].

إن إبسن يجسّد لنا تلك اللحظات القاسية من خلال هذا الحوار الدرامي الطويل، وهو يجسد حقيقة مأساة الإنسان: روبك وإيرين،فإن إيرين، التي حاولت قتل روبك، قد أحجمت عن قتله لأنها شعرت بأنه رجل ميت بلا مشاعر أو غرائز.

إيرين: لأنه خطر لي في الحال، وقد تملكني الفزع، أنك ميت منذ عهد بعيد.

روبك: ميت!

إيرين: ميت، ميت مثلى..نحن الجسدين الباردين من الطين.

روبك: أنا لا أسمى ذلك موتًا، ولكنك لا تفهميني.

إيرين: أين اذن تلك الرغبة المحرقة التي كنت تحاربها وتجاهدها عندما كنتأقف أمامك حرة كالمرأة التي بعثت من الموت[68].

إن هنا اعترافًا صريحًا من روبك بأنه أهمل الحياة من أجل الفن.

روبك:..كنت إذ ذاك أعمى..أنا الذي رفعت تمثال الطين الميت فوق سعادةالحياة والحب.

إيرين:..لقد فات الأوان..وضاعت الفرصة[69].

لكن قسوة الحياة والألم والمعاناة التي تكبدتها إيرين تجعلها أشد تشاؤمًا وزهدًا في الحياة.

إيرين: لقد ماتت الرغبة في الحياة يا أرنولد، فما قد بعثت وبحثت عنك حتى وجدتك –وإذ ذاك رأيت أنك أنت والحياة كليكما ميتان– كما كنت أرقد وأنا ميتة[70].

إن شعور الإنسان بأنه يحيا كالموتى شعور قاس مرير، يجعل النفس "حزينة حتى الموت".

روبك: ستشرق علينا كل قوى الضياء، وكل قوى الظلام أيضًا..هل تتبعيني إذن!آه ياعروسي الظريفة..

إيرين:..أتبعك بحرية وسرور يا سيدي ومولاي![71].

إن البعث الحقيقي لكليهما يكمن في عملية الانتحار، هذا الانتحار (الموت) هو بمثابة بعث جديد لهما، حيث يمكن التخلص، بل الهرب والانسلاخ من الألم والمعاناة من تلك الحياة التي لم تعط كلًّا منهما السعادة التي يتطلبها الإنسان من تلك الحياة، وإن كانا قد حظيا بساعة الموت انتحارًافقد ماتا فوق الجبل ودفنا تحت الجليد.

نستطيع في نهاية هذا البحث أن نفهم الرمز الرائع الذي قدّمه إبسن من خلال الراهبة التي ترتدي السواد، والتي ترمز إلى ملاك الموت الذي كان يتتبع خطوات إيرين حتى أصبح بمثابة ظلّها.لقد كان ذلك بمثابة وداع لـــ إيرين وروبك إلى العالم الآخر، كبعثلحياة أخرى مجهولة.

Abstract

Life, Death, and Resurrection By Epsen

(A study of Play: When we, the dead, are resurrected)

By Ali Abdullah Haider

There is no doubt that the life the dramatic writer lives imprints his dramatic works, whether he does it consciously or unintentionally during the stage of artistic creativity, despite taking into account objectivity in the presentation of the plot and dramatic characters, so that the subject does not become subjective. For example, we cannot recognize William Shakespeare through studying the play Hamlet, Othello, or King Lear, because of his ability to focus on the plot and characters of the dramatic work without involving himself in the subject.

During the researcher's study of the works of the writer Henrik Ibsen, he found that there is a close relationship between the writer and his dramatic works, in light of studying his life on one hand, and his dramatic works on the other.

Ibsen has suffered a lot from loneliness and alienation, so as he, subconsciously, could not break away from projecting his torment on his works; from here, the researcher linked his life with models of his dramatic plays, especially in his last play in question.

Epsen has pushed us to addressing humanitarian issues that raise many philosophical, social and psychological questions through this creative work, as the title of the play bears many puzzling questions that make the recipient or viewer plunder the awe of this exciting title. Epsen has embodied, and even revealed to us that there are human beings who live their lives in isolation, gloom, and sadness. They are thinking about the past and fear of the future! They always suffer and live in a frightening deadly silence, but they are thinking about the past in a desire to confine within the depths of their selves for the fear of confronting themselves and to escape thinking about tomorrow. That is because they do not have the human will that takes them out of the moral death they imposed on themselves to the true human life, or in a dramatic human sense, as the researcher explained, from moral death to salvation, new resurrection and getting normal life. There are those who found their salvation in liberation from the past through the human will the Creator granted to human beings, (such as the character of Maya), and those who found their salvation in suicide to escape moral death (such as the character of Robeck).

المصادر والمراجع:

[1] شكسبير، وليم:هملت، ت: خليل مطران، دار مارون عبود، بيروت، 1986، ص26.

[2] المصدر السابق نفسه، ص 58–59.

[3] برادبروك، ميوريل: إبسن النرويجي، ت: فؤاد كامل، وكامل يوسف، مكتبة الفنون الدرامية، عدد 22، مكتبة مصر، ب ت، ص238.

[4]إبسن، هنريك: الأشباح، ت: د. عبدالله عبد الحافظ، من المسرح العالمي، عدد 201، وزارة الإعلام، الكويت يونية 1986، ص 111.

[5]المصدر السابق نفسه، ص 95.

[6]المصدر السابقنفسه، ص 75.

[7]انجيل متى، الاصحاح 19، الآية 5، ص 44.

[8]إبسن، هنريك: بيت الدمية، ت: كامل يوسف، مكتبة الفنون الدرامية، عدد3، مكتبة مصر، القاهرة، ب ت، ص 38-39.

[9]المصدر السابق نفسه، ص 42.

[10]المصدر السابق نفسه، ص 42.

[11]المصدر السابقنفسه، ص 61-62.

[12]المصدر السابق نفسه، ص 112.

[13]المصدر السابق نفسه، ص 113.

[14]المصدر السابق نفسه، ص 113.

[15]المصدر السابق نفسه، ص 113.

[16]المصدر السابق نفسه، ص 114.

[17]المصدر السابق نفسه، ص 116.

[18]المصدر السابق نفسه، ص 116.

[19]المصدر السابق نفسه، ص 135.

[20]المصدر السابق نفسه، ص 137.

[21]المصدر السابق نفسه، ص 137.

[22]المصدر السابق نفسه، ص 138.

[23]المصدر السابق نفسه، ص 139.

[24]إبسن، هنريك: سيد البنائين، ت: صلاح عبد الصبور، الألفكتاب، عدد 271، مكتبة مصر، ب ت، ص30.

[25]المصدر السابق نفسه، ص 33.

[26]المصدر السابق نفسه، ص 68.

[27]المصدر السابق نفسه، ص 98.

[28]إبسن، هنريك: عدو الشعب، ت: مهيبة المالكي الدسوقي، منشورات مكتبة أطلس دمشق 1963، ص111.

[29]المصدر السابق نفسه، ص 158.

[30]إبسن، هنريك: عندما نبعث نحن الموتى، ت: محمد سامي أحمد، من روائع المسرح العالمي، عدد35، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، فبراير، 1963، ص 60.

[31]المصدر السابق نفسه، ص 54.

[32]المصدر السابق نفسه، ص 54.

[33]المصدر السابق نفسه، ص 63.

[34]المصدر السابق نفسه، ص 104.

[35]المصدر السابق نفسه، ص 108.

[36]المصدر السابق نفسه، ص 109.

[37]المصدر السابق نفسه، ص 110.

[38]المصدر السابق نفسه، ص 110.

[39]المصدر السابق نفسه، ص 111.

[40]المصدر السابق نفسه، ص 114.

[41]المصدر السابق نفسه، ص 169.

[42]المصدر السابق نفسه، ص 77.

[43]غرافيه، موريس: إبسن، ت: صلاح الدين برمرا، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، دمشق، 1985، ص 50.

[44]المرجع السابق نفسه، ص 51.

[45]موي، توريل: هنريك إبسن وميلاد النزعة إلى الحداثة، ت: د. جمال عبد المقصود، وزارة الثقافة، المسرح التجريبي، عدد 19، القاهرة، 2007، ص 652.

[46]تمبلتون، جون: النساء في دراما إبسن، ت: د. محمد سيد علي، وزارة الثقافة، مهرجان المسرح التجريبي، عدد20، القاهرة 2008، ص 492.

[47]إبسن، عندما نبعث نحن الموتى، مصدر سابق، ص 84.

[48]المصدر السابق نفسه، ص 84.

[49]المصدر السابق نفسه، ص 89.

[50]وليمز، ريموند: المسرحية من إبسن إلى اليوت، ت: د. فايز إسكندر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ب. ت، ص142.

[51]إبسن، عندما نبعث نحن الموتى، مصدر سابق، ص 89.

[52]المصدر السابق نفسه، ص 91.

[53]المصدر السابق نفسه، ص 93.

[54]المصدر السابق نفسه، ص 91.

[55]المصدر السابق نفسه، ص 93.

[56]المصدر السابق نفسه، ص 93-94.

[57]المصدر السابق نفسه، ص 124.

[58]المصدر السابق نفسه، ص 126-127.

[59]المصدر السابق نفسه، ص 128.

[60]المصدر السابق نفسه، ص 122.

[61]المصدر السابق نفسه، ص 134.

[62]المصدر السابق نفسه، ص 135-134.

[63]المصدر السابق نفسه، ص 135-136.

[64]المصدر السابق نفسه، ص 142.

[65]المصدر السابق نفسه، ص 143.

[66]المصدر السابق نفسه، ص 147.

[67]المصدر السابق نفسه، ص 162.

[68]المصدر السابق نفسه، ص 165.

[69]المصدر السابق نفسه، ص 166.

[70]المصدر السابق نفسه، ص 166.

[71]المصدر السابق نفسه، ص 168.